
حب
فوق سقف العالم
بقلم
عبد الكريم فايد

حب فوق سقف العالم

إلى الناظرين بعزة و رفعة لكل المتاع الغليظ ، ..
يرددون : اللّه أكبر ..
من حملوا الهم و عزموا على إيقاف خسارة العالم المستمرة منذ انحط المسلمين ..
من ضاقت عليهم المدنية الحديثة ..
من اشمئزوا من قبحها رغم كل التطرية و التبرج الذي تبديهم
من حطموا سقف العالم و صاحوا : أرواحنا أكبر من سقفك الضيق ..
إلى الشريفات الصابرات على فقد الأزواج و الأحباب ،من ضربن في الصبر و الإيمان ما يُعجز أصحاب اللحى !
اللواتي أقسمن ألا يستمر الهوان .. و عزمن أن تنفرج أرحامهن بجيل يعيد المجد لأهله ..

كلمة قبل البداية :
ذلك الحب ..

ذلك الحبُ .. ذلك الإله قد هبط..
و قد وقف بينهما إله الحب ..

***

إنه جبران خليل جبران ، ألا تعرفونه ؟
هو الثائر الذي حطم التقاليد البالية ، هو القائل : كلُ ما في الأرض يحيا بناموس طبيعته و من طبيعة ناموسه يستمد مجد الحرية و أفراحها .. أما البشر فمحرومون من هذه النعمة لأنهم وضعوا لأرواحهم "الإلهية!!" شريعة عالمية محدودة ،و سنوا لأجسادهم و نفوسهم قانوناً واحداً قاسياً ،و أقاموا لميولهم و عواطفهم سجناً ضيقاً مخيفاً ، و حفروا لقلوبهم و عقولهم قبراً عميقاً مظلماً ..
فإذا شما قام واحد من بينهم و انفرد عن جامعتهم و شرائعهم قالوا هذا متمرد شرير خليقٌ بالنفي ، و ساقط دنس يستحق الموت ..
نعم .. يريد أن يربطنا بالناموس ، يريدنا أن نكون كـ كل شيءٍ في الأرض ، كما هي الدواب و الهوام فهكذا يكون الإنسان سيد نفسه يتبع ما تمليه عليه عواطفه و نداء روحه أو ما نسميه نحن – معاشر المتزمتين- بالهوى ،لا فرق ..

***

يصرخ بهذه الكلمات :
ذلك الحب .. ذلك الإله قد هبط ! وقد وقف بينهما إله الحب !
إنها ليست مجرد تصوير أدبي راقٍ لذلك المجهول المسمى (حُب) ..
إنه يُعيدنا هنا إلى الوثنية التي لم تعرف الإله الواحد ،يعيدنا إلى أساطير الرومان و اليونان ، حيث يُصور إله الحب و يرسمون له الصور و يدوننه في أدبياتهم ،يعيدنا للأسطورة (ولا شك أن الإنسان يسمع الأسطورة و لا يتدين بها)



نعم ليست مجرد كلمات عابرة فهو يؤكدها في أكثر من موضع في قصصه التي تدور أغلبها حول موضوع الحب و قدسيته و فوقيته على كل شيء حتى الدين !

كيف لا ،و إله الحب يهبط ليعقد بين قلوب المحبين !!

فأي قدسية أعظم من قدسية الحب الذي تعيد من أجله الأرواح بعد الموت في جثامين آخرين ، فقط لكيلا يحرم الحبيبان ملذات الحب، و مجد الشبيبة ؟!

***

لم يحتل موضوع من الأدب الإنساني بقدر ما احتل الحب ..

كيف لا يحتل ما احتل ، و هو ذلك الشعور الغريب الذي ينفذ للنفس دون ميعاد مرة بجمال ساحر ،و أخرى بروح شفيفة تأسر روح الحبيب فتتجاوز كل الحواجز و المعوقات ..

فتجد امرأ القيس قد أذاب الحروف في معلقته صبابة و حباً :

أفاطِمُ مهلاً بعض هذا التدلل ** وإن كنتِ قد أزمعت صرمي فأجملي

وَإنْ تكُ قد ساءتكِ مني خَليقَة ** فسُلّي ثيابي من ثيابكِ تَنْسُل

أغَرّكِ مني أنّ حُبّكِ قاتِلي ** وأنكِ مهما تأمري القلب يفعل

ومَا ذَرَفَتْ عَيْناكِ إلا لتَضْربي ** بسَهمَيكِ في أعشار قَلبٍ مُقَتَّلِ

و ترخي أذنيك لسيد قطب إذ يقول :

وإن لا يكن بد من اللهو *** فاعبثي بألبابنا لا بالطيور الهوائم

وهبتك إحساسي فما شئت فاصنعي *** أمينا لعهدي مخلصا غير نادم

وقاك الجمال السمح كل ملامة *** وعتب فلا تخشي مقالة لائم

و هاهو الرافعي[1] يحدثنا عن الحب : عجبًا للحب! هذه ملكة تعشق فتاها الذي ابتاعه زوجها بثمن بخس؛ ولكن أين مُلكها وسطوة ملكها في تصوير الآية الكريمة؟ لم تزد الآية على أن قالت: {وَرَاوَدَتْهُ الَّتِي} و{الَّتِي} هذه كلمة تدل على كل امرأة كائنة من كانت؛ فلم يبق على الحب مُلك ولا منزلة؛ وزالت الملكة من الأنثى!

[1] مصطفى صادق الرافعي



وأعجب من هذا كلمة {وَرَاوَدَتْهُ} وهي بصيغتها المفردة حكاية طويلة تشير إلى أن هذه المرأة جعلت تعترض يوسف بألوان من أنوثتها، لون بعد لون؛ ذاهبة إلى فن، راجعة من فن؛ لأن الكلمة مأخوذة من رَوَدَان الإبل في مشيتها؛ تذهب وتجيء في رفق. وهذا يصور حيرة المرأة العاشقة، واضطرابها في حبها؛ ومحاولتها أن تنفذ إلى غايتها؛ كما يصور كبرياء الأنثى إذ تختال وتترفق في عرض ضعفها الطبيعي كأنما الكبرياء شيء آخر غير طبيعتها؛ فمهما تتهالك على من تحب وجب أن يكون لهذا "الشيء الآخر" مظهر امتناع أو مظهر تحير أو مظهر اضطراب، وإن كانت الطبيعة من وراء ذلك مندفعة ماضية مصممة.

ثم قال: {عَنْ نَفْسِهِ} ليدل على أنها لا تطمع فيه، ولكن في طبيعته البشرية، فهي تعرض ما تعرض لهذه الطبيعة وحدها، وكأن الآية مصرحة في أدب سام كل السمو، منزه غاية التنزيه بما معناه: "إن المرأة بذلت كل ما تستطيع في إغرائه وتصبنيه، مقبلة عليه ومتدللة ومتبذلة ومنصبة من كل جهة، بما في جسمها وجمالها على طبيعته البشرية، وعارضة كل ذلك عرض امرأة خلعت -أول ما خلعت- أمام عينيه ثوب الملك."

ثم قال: {وَغَلَّقَتِ الْأَبْوَابَ} ولم يقل "أغلقت" وهذا يشعر أنها لما يئست، ورأت منه محاولة الانصراف، أسرعت في ثورة نفسها مهتاجة تتخيل القفل الواحد أقفالًا عدة، وتجري من باب إلى باب، وتضطرب يدها في الأغلاق، كأنما تحاول سد الأبواب لا إغلاقها فقط.

{وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ}

ومعناها في هذا الموقف أن اليأس قد دفع بهذه المرأة إلى آخر حدوده، فانتهت إلى حالة من الجنون بفكرتها الشهوانية، ولم تعد لا ملكة ولا امرأة، بل أنوثة حيوانية صرفة، متكشفة مصرحة، كما تكون أنثى الحيوان في أشد اهتياجها وغليانها.

هذه ثلاثة أطوار يترقى بعضها من بعض، وفيها طبيعة الأنوثة نازلة من أعلاها إلى أسفلها. فإذا انتهت المرأة إلى نهايتها ولم يبق وراء ذلك شيء تستطيعه أو تعرضه بدأت من ثم عظمة الرجولة السامية

المتمكنة في معانيها، فقال يوسف: {مَعَاذَ اللَّهِ} ثم قال: {إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ} [يوسف: ٢٣] ثم قال: {إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ} [يوسف: ٢٣]. وهذه أسمى طريقة إلى تنبيه ضمير المرأة في المرأة، إذ كان أساس ضميرها في كل عصر هو اليقين بالله، ومعرفة الجميل، وكراهة الظلم. ولكن هذا التنبيه المترادف ثلاث مرات لم يكسر من نزوتها، ولم يَفْثأ تلك الحدة، فإن حبها كان قد انحصر في فكرة واحدة اجتمعت بكل أسبابها في زمن، في مكان، في رجل. فهي فكرة محتبسة كأن الأبواب مغلقة عليها أيضًا؛ ولذا بقيت المرأة ثائرة ثورة نفسها. وهنا يعود الأدب الإلهي السامي إلى تعبيره المعجز فيقول: {وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ} [يوسف: ٢٤] كأنما يومئ بهذه العبارة إلى أنها ترامت عليه، وتعلقت به، والتجأت إلى وسيلتها الأخيرة، وهي لمس الطبيعة بالطبيعة لإلقاء الجمرة في الهشيم!

جاءت العاشقة في قضيتها ببرهان الشيطان يقذف به في آخر محاولته. وهنا يقع ليوسف -عليه السلام- برهان ربه كما وقع لها هي برهان شيطانها. فلولا برهان ربه لكان رجلًا من البشر في ضعفه الطبيعي.

***

لم يُبق الحبُ لامرأة العزيز كِبراً يدفعها للترفع عن مراودة فتى اشتراه زوجها ،و لا ورعاً و خشية لزوجها ..

حتى بعد أن افتضح أمرها ما زالت ترى أن ما فعلته كان يجب أن تفعله { فَلَمَّا سَمِعَتْ بِمَكْرِهِنَّ أَرْسَلَتْ إِلَيْهِنَّ وَأَعْتَدَتْ لَهُنَّ مُتَّكَأً وَآتَتْ كُلَّ وَاحِدَةٍ مِنْهُنَّ سِكِّينًا وَقَالَتِ اخْرُجْ عَلَيْهِنَّ ۖ فَلَمَّا رَأَيْنَهُ أَكْبَرْنَهُ وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ وَقُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ مَا هَٰذَا بَشَرًا إِنْ هَٰذَا إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ ، قَالَتْ فَذَٰلِكُنَّ الَّذِي لُمْتُنَّنِي فِيهِ ۖ وَلَقَدْ رَاوَدْتُهُ عَنْ نَفْسِهِ فَاسْتَعْصَمَ ۖ وَلَئِنْ لَمْ يَفْعَلْ مَا آمُرُهُ لَيُسْجَنَنَّ وَلَيَكُونًا مِنَ الصَّاغِرِينَ } ..

{راودته} اعتراف .. {ولئن لم يفعل ما آمره} اصرار على أن تقضي ما نفثه الشيطان في رأسها بعد أن أشعل الحب قلبها و امتد الشرر إلى أعصابها فما باتت تحتمل !!

***

و يورد الرافعي في حديثه عن الحب كيف وقع ذلك الزاهد الملقب بـ "القس" في هوى جارية حتى تمكن منه و بات أسير رحمته، و كيف كان ذلك الحب ، فيترك الجارية تحكي الحب المجنون في حضرة يزيد فتقول عن حبيبها : ولكني لم أيأس يا أمير المؤمنين، وقد أردت أن أظهر امرأة فلم أفلح، وعملت أن أظهر شيطانة فانخذلت، وجهدت أن يرى طبيعتي فلم يرني إلا بغير طبيعة، وكلما حاولت أن أنزل به عن سكينته ووقاره رأيت في عينيه ما لا يتغير كنور النجم، وكانت بعض نظراته والله كأنها عصا المؤدب، وكأنه يرى في جمالي حقيقة من العبادة، ويرى في جسمي خرافة الصنم، فهو مقبل علي جميلة، ولكنه منصرف عني امرأة ؛لم أيأس على كل ذلك يا أمير المؤمنين، فإن أول الحب يطلب آخره أبدًا إلى أن يموت ..

كأنه يرى في جمالي حقيقة من العبادة ،و يرى في جسمي خرافة الصنم !! هي هنا تخبرنا أن الحب حين يقع على الروح فإنه لا يعير الجثة أي قيمة ،هي جثة و قد تسامى القلب عنها إلى الروح التي تحركها ، و صورته أروع تصوير حين قالت : كأنه يرى في جمالي حقيقة من العبادة !!
أما جسدها الذي تفننت في جعله جاذباً آسراً ، فما هو بآسرٍ من لا يرى فيه إلا وعاءً للعطر ، و أي عطر ؟ عطر لا يذهب مع الرياح إن كُسر الإناء و رحل الحبيب ، بل يبقى في القلب محفوراً كآثار الكيّ مهما تقادم الزمان فنظرة إليه تحيي الألم من جديد ..
خرافة الصنم !!
خرافة الصنم يحسبه من يعبده دافعاً ضاراً و ما هو كذلك ،يقف بشموخ على الأرض ، قد حرص صانعوه أن يكون أكمل ما يمكن ..
تقدم إليه القرابين ،و يقف الجاهليون يجأرون إليه بالدعاء !!
و هكذا هو في الحب = حسناءٌ ترى في حسنها ما يعبده الناس و يتودودن لسدنته ، ثم يكون أن يأتي من يترفع فلا يحني لهذا الصنم هامة ،و تثور الحسناء فلم يغن عنها الصنم شيئاً !!

لم يدفع هذا المغرور الذي اجتاح قلبها .. فلا يلبث أن يتحطم هذا الصنم و تسقط كل أثواب الكبرياء التي تزيت بها ،و تخر بين يديّ مغرورها كما هي مجرد أنثى لا أكثر !!

فمنطق الحب يكفر بكل الأصنام ..

هكذا هو الحب أحد أمرين ، يخبرنا سيد :

! من جحيم يتلظى أو جنان ومن الحب ، وما صاغت يداه

***

فرق كبيرٌ هنا بين الحبُ الذي يترفع عن الجسد فيسمو بالروح و بين الحب "الإله" الذي لا يكون إلا فاحشاً ..

و لا يكون الحبُ إلا حارساً للرذيلة ..

يحدثنا جبران : و قد وقف بينهما إله الحبُ باسطاً جناحيه ليحميهما من لوم الناس و تعنيفهم ..

فلا يكون الحب إلا انعكاس لتضخم (الذات) عند الإنسان كجنس ،و نزعة لتحرره من "الشريعة" التي تضع القيود على هذا الحب !

هو هنا جولة من جولات المعركة بين الإنسان و اللّه = صورة من صور الإلحاد تتغلف بغلاف المشاعر و الفطر التي فطرها الخالق في نفسه ..

يبغونه فاحشاً يرتدي أثواب البغاء .. أما الشرفاء فيبغونه عفيفاً طاهراً قدسي الطباع ..

و بين الرؤيتين يتربع الحب في عرش البحث و الأدب الإنساني ،من يدرك كنهه ؟

كيف يتسلل إلى النفس ، فيصرعها ؟ .. أما من سبيل لتفاديها ؟

درويش يزعم أنه مقهى صغير على شارع الغرباء :

كمقهى صغير على شارع الغرباء

هو الحبٌ ... يفتح أبوابه للجميع

كمقهى يزيد وينقُصُ وَفْق المُناخ

إذا هَطَلَ المطرُ ازداد رُوّادُهُ،

وإذا اعتدل الجو قلُّوا وملُّو

***

(١) اللقاء الأول

خرج سامي و هو يتأبط ذراع صديقه محمود ،فاليوم يوم الزيارة ؛ لقد كانا حديثي عهد باجتماع هنا فقد جيء بمحمود إلى هذا السجن مؤخراً و اليوم هو أول يوم للزياة يشهده محمود برفقة صديقه سامي.

لم يأت أحد ليزور محمود ،فأمه المسكينة لم تعلم بترحيل ابنها لهذا السجن و هي ما تزال تلهث في مكاتب الأجهزة الأمنية علها تعلم مكان ابنها..

***

أتت "ياسمين" لتزور أخاها سامي ...

كان محمود واقفاً بجوار صديقه سامي،فلما لحظ ذلك الجسد الملائكي المتغطي بالسواد يقترب متجهاً إليهما أحس بشيء غريب لم يعلم ما هو،قال له سامي:هذه أختي ياسمين،رد محمود السلام و تنح جانباً .

انقضى اليوم دون أن يأتي أحدٌ لزيارة محمود الذي انزوى في ركن من أركان الزنزانة شارداً ببصره يفكر في تلك النسمة الرقيقة التي مرت أمامه،و النفس الطاهرة المنتقبة بالسواد و اللؤلؤ يغطيه المحار ليحافظ عليه من الدنس ..

تردد في إطلاع سامي،لكنه آثر أن يدفن هذا الإحساس كما دفن غيره في صدره الذي ازدحمت فيه المقابر حتى لا يكاد يستوعب جديد الموتى من الأفكار و المشاعر،ما عسى أسيٌر مقيد مثلي أن يفعل؟

أظل في أرواحنا مكانٌ للحب؟ ما معنى العشق في معجم حياة الأسر هذه؟ و حياتنا ليست ملكاً لنا ،لم يبق شيء نملكه منه سوى خفقات القلب و سبحات الفكر التي تصطدم بقضبان الزنزانة الفولاذية ، فهؤلاء الطغاة كل يوم يحولونا من مكان لآخر دون إرادة منا ،هاهي أمي المسكينة تلهث و تدور من مكتب لآخر دون أن تعلم بمكاني و تتمكن من زيارتي..

كم أحن إليها ؛ لكن أين محل الإحساس عند هؤلاء الملاعين الذين صادروا حريتنا و حولوا حياة أهلنا جحيماً؟!!

***

أحس محمود بيد دافئة تربت على كتفه، فإذا هو سامي يقول:لا تقلق،لقد طلبت من أختي ياسمين أن تذهب لأمك و تخبرها بمكانك و لعلها تزورك الأسبوع القادم إن شاء الله..

هنا خفق قلب محمود و تسارعت دقات قلبه و بصعوبة قال:هل ستذهب ياسمين لأمي؟

- ستذهب إن شاء الله يا محمود؛لطالما كنت أحدثها عنك قبل الأسر و عن رفقتنا في الجامعة و صوتك العذب و أنت تقرأ القرآن و دروسك التي تلقيها في المسجد..

كنت أسمعها بعض التسجيلات التي نسجلها من دروسك و عندما رأتك اليوم و أخبرتها أن هذا الواقف هو صديقي محمود ، قالت لي:أبلغه السلام و أخبره أني سأذهب لأمه و أخبرها بمكانه..

***

عاد الصديقان لأيامهما الأولى عندما التقيا في مسجد الجامعة بعد أن ألقى محمود درساً عن التوكل على الله .. ثم التحاق سامي بمحمود في السكن.

لقد كانا يدرسان الهندسة و كانا من أميز الطلاب و كانا محبوبين من الجميع.

مرت بهما الأيام و علاقتهما تتوطد ببعضهما، إن مرض أحدهما لم يستطع الآخر أن يذهب للجامعة و يدعه فكان الأساتذة و الطلاب يتعجبون من هذا ..

***

محمود كان وحيداً لأبويه؛كان يحدث سامي كيف تعب والده حتى يدخل الجامعة ليتخرج مهندساً و يفتخر هذا العامل البسيط و تلك المرأة المضنية التي تحملت المشاق و جاعت حتى يشبع ابنها و سهرت على المذاكرة معه بقدر ما أسعفها العلم البسيط الذي أخذته؛و كان والده يجمع من ماله ليشتري الكتب من مختلف صنوف المعارف لابنه



حتى يتعلم و يتسع عقله و وعيه و من هنا تعلق قلب محمود بالكتاب و العلم.

كان يقرأ في كتب التاريخ عن أمجاد أمته فتترك الأحرف أثرها في قلب محمود الصغير جرحاً نازفاً و هو يرى حال الأمة اليوم قد تفككت و هان أمرها على الناس..و المسلمون حالُهم حال الثمل الذي لا يعلم ما يدور حوله.
ثم يقرأ في كتاب آخر عن الدين و يرى عكسه على الواقع .

***

في يوم ذهب محمود لشيخ المسجد الذي علمه القرآن في بلدته و سأله:لماذا لا تصلحون الأمة يا شيخ؟
كانت الصاعقة عندما سمع محمود جواب الشيخ:عندما تكبر يا محمود ستعلم أنه إذا أردت العيش فعليك أن تحبس لسانك و قال باستنكار:أتريد أن أطرد من عملي؟

***

اجتاز محمود الثانوية بتقدير ممتاز و دخل كلية الهندسة ليحقق حلم والديه البسيطين الذين أودعاه كل آمالهما و طموحاتهما.
و في الجامعة انتظم محمود في المسجد يلقي الدروس و يعلم القرآن ..
و في احدى ليالي يناير الباردة كان محمود يلقي درسه المعتاد في المسجد ؛ ليلتها لم يتوقع أن يحدث ما حدث،لم ييعلم أنها بداية فصل جديد و واقع لم يعشه من قبل،لم يعلم أنها بداية المحنة التي خوفه منها شيخ البلدة..



(٢) بداية المحنة

لم ينتبه محمود و صديقه سامي لتلك الوجوه الكالحة التي ترقبهم من بعيد و تترصد تحركاتهما و تلحظ اهتمام الناس بدروس محمود و حديثه عن تاريخ المسلمين المجيد وواقعهم المرير و عن فضل الجهاد والمجاهدين وكرامتهم عند الله؛لقد تعلق قلب محمود بهذه الكلمة حتى كنى نفسه <<أبا جهاد>> ..

اقترب موعد الامتحانات و بدا على الجميع أعراضها ،كانت الجامعة تمور موراً و تهتز نفوس الطلاب؛هي السنة الأخيرة و يتحقق حلم والديّ محمود ،و يعود محمود لبيته حاملاً شهادته ويعوض والديه شيئا عن صبرهما الطويل ومكابدتهما المشاق في سبيل راحته ولعله يثبت لهما أن ما بذلاه من عظيم الجهد لم يذهب أدراج الرياح..

***

لم يخطر ببال محمود أن المجرمين سيغتالون هذا الحلم!!

تفاجأ بقوة مسلحة تقتحم السكن الجامعي في سكون الليل فتهتز الأرض تحت أقدامها و تعبث بأغراض غرفته و تمزق كتبه و أحلامه الجميلة ثم تقتاده و صديقه سامي إلى حيث لا يعلم ما ينتظره..

لم يكن يعلم ما يحدث و ظل يبادل صديقه سامي النظرات يحاول أن يفهم ما يجري؛أهو حلم سيستيقظ منه بصوت سامي:الصلاة خيرٌ من النوم يا شيخ محمود..

في لحظة واحدة ازدحمت الأفكار في رأسه و تذكر كلام الشيخ:من لم يحبس لسانه ،فمصيره السجن..أهذا مصيري؟ أيصدق كلام الشيخ؟

ماذا عن أبي و أمي؟

ماذا عن الامتحانات و الشهادة؟

أم أنه حلم مزعج لا يلبث قليلا حتى تطرده اليقظه؟

***

تذكر مشهد أبيه و أمه و هما يودعانه بعد انقضاء العطلة و يوصيانه بالاجتهاد و المذاكرة.

القيد يؤلمه و المركبة الضيقة تسرق أنفاسه و تضيق بتفكير رأسه و الوجوه العابسة ذات الأصوات المنكرة من حوله تدور عيناه ويعصف بعقله التفكير،وآلاف من الصور والكلمات تمر برأسه كقطيع من الثيران الهائجه ، وتوالت برأسه الأفكار السوداء..

لم ينتزعه من هذه هذا المحيط العاصف بالهواجس إلا كف باردة وضعت على يده..

ولعل صاحبها أحس بحاله وحاول أن يبث فيه الطمأنينة التي ربما يفتقدها هو أيضا في مثل هذا الموقف العصيب..

اعتصر محمود يد سامي بقوة كأنه يحاول أن يوحد كيانهما في وجه إرهاب العسكر وتهديدهم.

وانقطع حديث الروح بين الشابين بتوقف السيارة أمام المبنى الموحش ذي الجدران الاسمنتية الغليظة غلظة وجوه أصحابه ، دقات القلب تتزايد و الأنفاس تضطرب تتجاذبهما الأيادي الغليظة و تسلقهما الألسن الفاحشة شتماً و لعناً؛ألقي بهما في غرفة سوداء مظلمة سقفها عال،لا متنفس بها غير الشبك بالأعلى الذي تتساقط منه أشعة الشمس على أرض الزنزانه ليعلم المسجونون أن النهار قد طلع في هذه الزاوية القصية عن الأرض حيث لا تبلغها حركة الحياة و لا تسمع غير الشتائم التي تتساقط من أفواه السجانين كوابل من الرواجم على رؤوس المساجين...

***

وقتها لم يكن محمود يرغب في شيء إلا إبريقاً من الماء ليتوضأ و اتجاه القبلة في هذا الركن من العالم..

تخيل حتى هذه حرم منها،حتى يجيء الضابط المسؤول .

مرت الساعات طوالاً حتى يجيء الضابط؛و بعد الاستجواب و التعذيب حولا إلى القضاء بتهمة<<الانتماء لتنظيم محظور!!!>>

و هناك بدأ فصل جديد مع محمود و صديقه



(٣) أمام القضاء

وجد الصديقان نفسيهما أمام أمر جلل و تهمة عظيمة؛لم يكن كابوساً مرعباً يستيقظ منه محمود كما تخيل أول الأمر،إنه أمر جدي يعايشه في حياة الواقع..

لكن توكل الله و أسند أمره إليه،فالأمر أكبر من أن يواجهه الصديقان بمفدرهما دون أن يطلبا العون من الله.

أما والد محمود فقد أعيته الصدمه و ألزمته فراش الضعف و المرض و هو يتحسر على فلذة كبده الذي كان ينتظر منه أن يغير بؤسه إلى نعيم و شقوته إلى راحه،لكنه اليوم في يد من لا يرحم، أضيع من اليتيم في مأدبة اللئام...

***

وقف الصديقان بحزم و صلابة أمام القضاء دون أن تنكسر لهما إراده أو يخور عزمها أو يتمكن منهما الذل و الانكسار.

لماذا هذا الواقع المشين؟

لماذا نرضى أن نبقى قطعان من الماشية تقاد إلى حتفها و تسمن لتُؤكل ؟

و أمطرا القاعة بالأسئلة الحائرة التي لا جواب لها،استحضرا مشهد سبارتاكوس و هو يتمرد على القوة الأولى في العالم لينتزع حريته من أنياب القوة المتسلطة،إن الحقوق تنتزع و لا تعطى منة من بشر؛و أي حرية هذه التي تعطى بالاستجداء و التذلل و الركوع، أي حرية هذه التي يطلبها الإنسان من غيره؟

إنه إقرار بالعبودية و طمع في أعطية ممن دانت النفوس لهم قسراً أو طوعاً؟

***

صرخا: نحن لم نذنب ذنباً حتى نُوضع في القفص ثم يجلس هؤلاء بلباسهم الأسود الذي يعكس سواد قانونه و تسلطهم على الناس ليحاكموننا؛يجب أن يتغير هذا الوضع،نريد أن تعود العزة لأهلها المؤمنين!!



تذكر محمود عندما سأله أستاذه في المدرسة : ما هي أمنيتك في الحياة؟ فأجاب و هو بعد صغير السن:أن نتحرر و تعود لنا عزتنا ؛ كلمات لم يفهمها أقرانه في الفصل، بل ربما لم يفهمها الأستاذ نفسه،فضج الفصل بالضحك!!!

***

كلما اشتد الحديث وجد تلك المرأة تبكي و هي تراقب كلماته فيبكي لبكائها و يتقطع قلبه حرقة عليها ،بينما آثر سامي السكوت فقد كفاه محمود مؤونة الحديث، و من بعيد كانت عينان تراقبهما كلما رآها سامي فاضت عيناه..

***

تدافعت الساعات و هي تتعجل في سيرها و الناس في انتظار ما تسفر عنه الجلسة و قد احتد فيها الجدل بين القضاء و المتهمين،ثم عم سكون الموتى هذه الوجوه الواجفة و غطاها بثوبه لولا تقلب الأبصار لحسب الناظر الوجوه مسخاً سلبها اللّه الحياة و أحالها جماداً أو أن الموت نزل عليها.

***

أم محمود كانت تتقطع في صمت بين ولدها الذي لا تدري أي لحظة هذه التي قلبت حياتها و أودعته القضبان و اغتالت حلم حياته بعد أن اقترب موعد الحصاد و أينعت الثمار فإن هي إلا أيام تفصل بين التحاق محمود بالجامعة معيداً بعد اجتيازه الامتحان.

أي سكين هذه التي اخترقت قلبها؟

هكذا تنقلب السعادة و تنتزع الفرحة من النفوس انتزاعاً و عبثاً تحاول التشبث بجدران القلب المتصدعة،لكنها تفلت تاركة تصدعات أعظم و جروحاً لا تندمل!!

أما علمت أن صراع الفرحة من أجل البقاء في القلب يتلف ميدان المعركة و يمزق أستار الروح لتبقى الأطلال الصدئة شاهدة على قسوة الأيام و تبدل الحال..كما هي الأرض تحمل آثار الصراع بين الذئاب و



الشاء ، فتبقى آثار الدم و العظم شاهدةً على الجريمة، و تبقى الجروح على جسد الذئاب شاهدةً على مقاومة الشاء للموت و تمسكها بالحياة!!
و في البيت يرقد أبو محمود الذي أتته الصدمة في حال لا يقوى على تحملها ،إنه يرى حلمه يتبخر دون أن يستطيع المحافظة عليها و يتسرب من بين أنامله كما ترقب الأرض الجرداء السحابة العابرة تمر فوقها و بين يديها و لا تعطيها إلا السراب..
لقد كانت الضربة أقوى من أن يتحملها جسمه الذي هزل بفعل الأيام ،لقد كانت قاصمة للظهر منعته الحراك.

***

و قطع الصمت المطبق صوت الصاعقة التي صمت الآذان و قضت عليهما بالسجن عشرة أعوام..



(٤) رحيل بلا وداع

اشتد المرض على والد محمود بعد سماعه حكم المحكمة و تدهورت صحته،لم يكن محمود يعلم بهذا فأمه لم تخبره و اكتفت أن تحمل وحدها هذه الأحمال متجردة من نزعات الأنثى التي تميل إلى إلقاء الأعباء و الأحمال من ظهرها و إلصاقها في أي شخص كان،لكن نزعة الأمومة غلبت نزعة الأنثى فانتصر التفاني على الذات؛فشحت بالحمل على ابنها الذي تشح عليه بشيء من قبل.

و في ليلة الجمعة الشاتية مع صفير الريح و سكون الليل و ارتجاف الأشجار من البرد و اضطراب أضراسهما و تمايل أغصانها بحثاً عما تتدثر به من البرد يرحل أبو محمود بصمت يتناغم مع سكون الكون و دوت صرخة أم محمود تهز السكون الذي يلف الكون ..

رحل بعد أن اغتال المجرمون حلمه و عدوه كثيراً على هذا البائس،رحل دون أن يتحقق شيء من آماله في الحياة؛لكن لا بأس فهناك حياة أخرى لا يعرفها هؤلاء المجرمون..حياة لا نصب فيها و لاتعب.

رحل و هو ينظر لشبح محمود جالساً على الكرسي غارقاً في محيط الكتب يبحث عن أغوار الأمور و يطلق شراع المعرفة يلتقط المعلومات و يقيدها على ورقه؛رحل و هو يسمع صدى صوت ابنه يلقي الدرس في المسجد بعد صلاة العشاء حيث السكون يخيم على هذه البلدة الراقدة على الضفة دون أن تتأثر بضجيج المدن وراء الوادي،الجميع يصغي مشدوهاً لهذا الفتى و هم يغبطون أباه على نجابته..

رحل بعد أن حرق الطغاة قلبه و لم يجد عزاءً..

***

أما محمود فكان يسعى جاهداً ليتأقلم مع هذه الجدران الشاهدة على انحطاط الانسانية و قيمة الإنسان يقيم علاقة حميمة مع من سكونوها قبله عبر آثارهم التي تركوها على الكتاب المفتوح،على بطن الزنزانة التي التقمتهم ...

أين من نقشوا هذه العبارات المعبرة عن معنى الظلم و القهر ؟

أرحلواْ دون أن يأخذواْ حقهم من الظالمين كما رحل أبو محمود يحمل القهر و العسف مع كفنه الأبيض؟
رحلواْ دون أن يسمع بهم أحد ،دون أن يحس بهم البسطاء الذين لا يعلمون في هذه الدنيا شيء غير اللهث وراء لقمة العيش و قد جعلها الطغاة مفنية للأعمار!!
لكنهم تركواْ آثارهم على جبين التاريخ،لقد دونوها في بطون الزنانزين يوم غابت بطون الكتب؛حتى لو هدمت هذه السجون فستبقى رائحة القهر الممزوجة بالعرق و الدم تأبى المحو،ستظل لعنة تطارد المجرمين في الدنيا و إن فلتواْ فالآخرة أشد ،حيث العدل الإلهي لا يحتاج لشهود يمحيهم المجرمون من وجه العدالة..
نقش الغريب الراحل ألمه على الزنزانة معتزاً و موقناً بالنصر مفعماً بالأمل صلباً رغم الألم : {لا تنظر لشدة الألم و المعاناة و تأكد أن النور سيبزغ ذات يوم؛ألا ترى أن الليل يشتد في ظلمته و يكفر ما حوله حتى لا تكاد ترى بصيص أمل و ترى سكونه المرعب فلا تكاد تسمع دبيباً سوى تلك الحشرات الحقيرة،فيخيل إليك أنه لن تقوم بعده حياة!!
ثم تبدأ سهام الفجر تخترق جسده و تمزق سيوف الصباح أطرافه،و تبدأ خطى الناس تزلزل سكون اليل حتى يخر صريعاً و تدور الدائرة،فتشدو العصافير لحن الانتصار...و يدوي في الأفق صوت المؤذن لصلاة الفجر معلناً الانتصار (الله أكبر...الله أكبر) ؛ أفلا يدل هذا على أن النصر من عند الله؟
ثق بالله ؛ الفرق الوحيد أنك آمنت بطلوع الفجر لأنك لامسته بحواسك؛أما انتصار الحق فتلمسه القلوب الحية التي آمنت بصدق قضيتها و عدل حديثها لأنها من الله و وعد الله غير مكذوب..و هنا تستوي الحياة و الموت فالانتصار في القلوب التي لا تهزمها الجيوش و لا تستطيع أن تسلب منها اليقين و إن سلبتها الحياة!!
أفتترك وعد الله و تركن لنفسك الظالمة؟!! }

هنا بكى محمود و تعزى في محنته بهذه الكلمات؛فهو لم يكن أول مبتلًى ، أول من عُذب ... إن كان صبر الصحابة و أتباع الرسل مثلاً عليا في بطون الكتب ... فهاهنا بطولات تدون في هذه الزنازين القذرة تفوح معها رائحة الدم؛هاهنا بطولات لا يعلمها إلا من دخل هذا العالم كما أن الكتب لا تعطي سرها و ما تحويه في بطنها إلا لمن غاص بين حروفها و مخر بعقله عباب الكلمات و يقلب الصفحات..

كم هي ظالمة هذه الجاهلية و هي تصنع أبطالاً زائفين تقدمهم للجمهور ليحتفي بهم و يخلد ذكراهم بينما يقبع الأبطال الحقيقيون في زنازين الطغاة يصبحون و يمسون ليلهم و نهارهم سواء،تتبادلهم الكلاب المسعورة تنهش لحومهم و تلهب السياط ظهورهم و هم يسطرون أروع فصول المجد و الفخر؛لكن بطولاتهم هذه وراء الشمس لا يراها أصحاب البصر المحدود الذين لا يعرفون إلا من سطرتهم الأيد الآثمة التي تقلب الحقائق،ترفع الوضيع و تضع الرفيع،فتصور الأبطال القابعين خلف الشمس مجرمين و سفهاء و تمجد السفلة و المجرمين الذين يفسدون في الأرض و لا يصلحون...

***

تأتي والدة محمود في أول زيارة له و هي تداري خلف نقابها دموعاً حرى تسيل، ثم تخبر ولدها أن أباه قد رحل عن الدنيا دون أن يلقي الوداع..

كم هي قاسية هذه المصائب إنها تبطش بكل قوة،تبطش حتى تتكسر القلوب الضعيفة و تتمزق الأرواح البالية و تتراجع العزائم الكاذبة و تخفت الأصوات الجبانة و ترهب الذوات المقلدة الإمعة؛أما أصحاب الهمم العالية و النفوس المؤمنة فلا تزيدها الضربات إلا ثباتاً و لا يزيدها لهبُ النيران إلا لمعاناً و نقاءً كما هو الذهب يخرج بعد فتنته فاتناً لمّاعاً..

و تفيض عينا محمود بدمع مدرار على أبيه الذي كان يراقب نمو شجرة أحلامه صباح مساء و يرعاها حتى إذا قويت أغصانها و بدأت زهورها تتفتح و الثمار تطلع هنا و هناك و كان أن تينع أتى عليه ذاك الفأس

الملعون تحمله الأيادي المجرمة فقطع أصولها و أتلف ثمارها؛و لم يقو الأب المسكين على البلاء و التحق بقافلة المظلومين الذين رحلوا قبل أن تنصفهم الأرض في يوم لا يُعرف فيه حلف للفضول يحمي الضعفاء من تغول الجاهلية عليهم!!

***

فقد والده و أبعد عن صديقه،فأصبحت الحياة باهتة لا يسليها إلا الصبر و زيارات أمه المريضة المريضة التي أعيتها الحياة و تصاريفها..
كانت تعلي من همته و تحثه على الصبر و تسليم الأمر للّه،فقرر الطغاة التفنن في تعذيبه و تعذيبها فأبعدوه لسجن آخر دون أن تعلم الأم بمكانه الجديد و هناك عاد ليلتقي بصديقه سامي،ربما رأف أحدهم في ساعة ضمير به فأحب له بعض التسلية..
لا يزال يذكر مقالة أمه في آخر زيارة:يا بني إن شرف الحياة لا يعطى بعد السنين و إنما بالأحداث،فلا شرف فيها للشيخ الذي قضى سنينه عبداً لشهواته و جبنه؛فالمجد فيها للطماح الذي يسعى لتحقيق آماله بكل جد ،يطاردها مطاردة الأوابد للطرائد البرية..و إن سخر الناس منه و عدوه طائشاً فهو الذي يصنع التأريخ و يخترق حياتهم و يرغم ألسنتهم على تناقل أخباره..

***

ثم رحلت .... و هاهو يرحل دون أن يلقي أحدهما الوداع..



(٥)الزيارة الثانية

ذهبت ياسمين لأم محمود و أخبرتها بمكان و طمنتها على حاله و تبدلتا أطراف الحديث،و انساب الكلام من بين الشفاه و استمرت ياسمين تأسر فؤاد أم محمود و تزرع عليه الورود و الأزهار بعد أن غطته الأشواك و تغسل بهدوء السواد الذي تتركه قسوة الأيام و النور يحل محله بالتدريج

لقد أشرقت الشمس على أم محمود من جديد بعد أن عثرت على مصباح زيتوني ينير ظلمات نفسها و هذا المصباح هو الذي دلها على ابنها الذي أبعده الطغاة و أتعبوها بحثاً عنه دون أن يدلها أحدٌ من القاسية قلوبهم على مكانه..

انتظرت أم محمود بتلهف موعد زيارة ابنها .. ليس لمواساته و الاطمئنان عليه و حسب ؛ فقد عزمت هذه المرة أن تقتني المصباح الذي يبدد الظلام و يطرد الأشباح،تلك النسمة التي يطيب الجرح بمرورها و تكون بلسماً يلتئم به الجرح الزائر تغسل آلامه و تزيل آثارة الغائرة في النفوس..

***

إنه يوم من أيام الخريف التي تفوح فيها رائحة الأرض المبللة برحمة السماء،يمتزجان بعد طول افتراق بينهما و قد كانا ملتحمين من قبل ؛ فتكون الأشواق أشد ما تكون فتبتلع الأرض هذه الرحمات و ترسلها إلى العروق الجافة في بطنها لتجري فيها كما يجري الدم في ابن آدم؛ فتنتظم دقات قلبها و تعود لتنتج و تثمر و تخرج طيباتها بعد أن ردت إليها الروح و ودعت أيام الجفاف و الشقاء؛فتتجدد الحياة و تكتسي بالزهور و الرياحين و تسمن العجول و تسيل الأنهار مدراراً..

هكذا الأرض تنتظر رسول السماء لتحيا به،تنتظره لتقضي على الشوق الذي تشعله الشمس المتقدة،و تتلاعب الأرض بالماء على ظهرها بعد أن احتفظت بقدر ما يبقيها حية حتى يأتي الرسول في العام القادم،تتسلى بالماء على ظهرها و أشعة الشمس تعكس الدنانير المذهبة تتلألأ ...



ذهبت أم محمود لزيارة ابنها الذي ارتدت إليه الروح بعد أن اجتمع بصديقه سامي و اهتدت أمُه لمكانه؛لقد عادت الحياة إلى هذه النفس التي لا تقيدها جدران الزنازين و لا يقضي على روحها الحديد و المعاناة،إن الحديد لا يقضي على الأرواح لأنها ليست من جنسه،و لا من اختصاصه؛إنها عالم علوي غير محسوس للماديات،تعجز عن السمو إليه النفوس المتجردة من الإحساس الذي يسمو بها في سبحات الروح من قبضة الطين الحيوانية،و يقف السيف عاجزاً عن إيقاف هذه الحركة،إن غاية ما يستطيع فعله أن يفصل الجسد عن الروح و عندها تتحرر الروح من الأرض و تنطلق إلى ملكوت اللّه العلوي.

***

لقد كان الحديث بين محمود و أمه كما لم يكن من قبل بينهما حديث لقد بدأت السحابة السوداء تنزاح قليلاً عن الوجوه و بدأت الألفاظ تتغير بعض الشيء لتعود الألسن تردد عبارات طال نكرانها مع تكرار المآسي و وحشة الزنازين و تعود الأذن على عبارات الفحش و القسوة التي تخرج من نفوس المجرمين التي تجردت من مشاعر الإنسان و لفظتها في عتبة السجن حيث لا مكان لها هنا و أنّى للكلمات الرقيقة العذبة أن تخرج من أفواه المجرمين و كيف يثمرُ القتادُ العنبَ

***

انقضت الزيارة و عاد محمود إلى الزنزانة ... جلس مع صديقه على الأرض القاسية و الصهد علامة مميزة للوضع،لكن النفوس الرقيقة التي تحبسها هذه الجدران البائسة القاسية لم تكن لتحجم تطلعاته أو تحد حركتها..

و يتبادلان الحديث ؛ و يقول سامي:ألم أقل لك إن الأمور ستسير على خير،فها أنت قد التقيت أمك من جديد..و صدقني سنخرج من هذا السجن عما قليل..



- يا سامي ، ليست المسألة أن نخرج من السجن أم لا المسألة أننا نستعلي على هذه الأشواك و نعلو بخطانا عنها؛حينها لن تضرنا شيئاً و تكون حسرة على من جمعها و يغلب...

أنا لم أعد أنظر للحلم الذي كان أبي -رحمه الله- يعيش لأجله نظرة اليائس الباكي،أؤمن أن قدر الله خير لنا و هذا الإيمان يجعلني الآن غير قلق من المستقبل ... غير قلق أن لا أجد ما أُعيل به نفسي و أمي و معاش أبي الذي لا يكاد يكفي تذكرة السفر لتزورني أمي..

- ماذا ستفعل بعد خروجك من السجن يا محمود؟

- أصدقك القول ، لا أعلم على وجه الدقه؛لكني سأبحث في الأرض،سأحاول أن أكمل دراستي ، أن أبحث عن عمل و الأهم أنني قررت أن أتزوج..

ألا ترى يا سامي كيف ارتقينا على هذه القضبان الغليظة التي تشبه هذا الحارس المسكين الذي لا أرى فرقاً بينهما سوى أن الحارس يتضجر من عمله بينما القضبان تبقى صامته..

و تتعالى الضحكات في الزنزانة...



(٦)الفجر يطلع من جديد

حتى في ساحة السجن لم يترك الصديقان الدعوة و هم الدين فكانا يلقيان الدروس كلما سنحت الفرص أمامهما و ازداد تعلق الناس بهما و اختلطا ... كان السجناءُ يتعجبون كيف يسجن أمثال هذين الشابين الذين يشع النور من وجهيهما و زاد عجبهم بعد أن جلسواْ إليهما و سمعا حكاياتهما..

لم يكن كل هذا يعني لهما شيئاً ؛ فلم يكن همهما البحثَ عن متعاطفين يشفقون عليهما و يوليانهما الاهتمام بقدر ما كانا مهتمين بنصرة هذا الدين و تبليغه للناس،و جعله يمشي بين الناس بعد أن غطاه النسيان و تراكم عليه الغبار و بقي حبيس الكتب على الرفوف و غاية تطبيقه مسجد يقيم فيه المسلمون ما بقي من الطقوس التي لم تنسخ من عراه،و يتبركون به فيعقدون القران فيه ، لعل الله يبارك زيجاتهم فتختفي المشاكل عن حياتهم الزوجية و يعمها الإلفة و الود؛لكن هيهات هيهات!!!

***

لم تعد السنين تعني بالنسبة لهما شيئاً مهماً ؛ فهما داخل السجن أو خارجه في عبادة و ربهم مطلع عليه بين هذه الجدران الموحشة و في تلك الروابي المزهرة سواء ..

و بين الحين و الحين يأتي الأهل لزيارتهما .. و روحهما في تعال عن زخرف الحياة و قيود الأرض ..

هناك شيءٌ واحد كان يتدسس في فؤاد محمود و هو يبقيه حبيساً بين الضلوع ليكون في تناغم و تماثل لمحبس صاحبه في هذه الزنزانة ، كان يحبسه و يسقيه من دمه؛و كان هذا الحبيس كصاحبه يزداد اشتعالاً كلما تمادى السجان في جبسه و يسمو عن عذابات الحبس فيخفق بحرية و يرفع لواء الانتصار على المعوقات و ينظم قصائد يفتخر بانتصاره على السجن يباهي بها أبا فراس في سجون الروم .. و لكنه مع كل هذا يبقى حبيساً لا يقدر على الانعتاق و تحطيم القيد ،كل ما يستطيع فعله أن لا يقر للسجان قرار،فيدعه



يتقلب في نار الحرية التي تكوي جمراتها ظهره و بطنه؛أي نوع من الحبس يحتاج هذا ، لقد أعياني!! تفننت في إسكات صوته و إخماد لهيبه،و كلما توهمت أن هذه الطريقة ستقضي عليه..رأيته يتمادي في السخرية مني و تسفيه عقلي و تدبيره ؛ ليس إنساناً فأقتله و أرتاح منه،ليست تعويذة كاهن،هو في نفسي و لا أستطيع لمسه فأقبضه و أنزعه انتزاعاً..ربما كان أكثر التصاقاً فيحيل الجسد بعد انتزاعاً هشيماً...

***

انقضت أربعة أعوام كانت الحياة فيها تتجدد و عجلتها تمضي باستمرار تدور خارج أسوار السجن؛أما داخل الأسوار فلا شيء يتجدد حتى وجوه الطغاة الكالحة هي ذاتها صباح مساء .. ينقل أسير من هنا إلى هناك أو تتحول من زنزانة إلى أخرى و من سجن لآخر؛لكن المعالم تظل كما هي جدران سوداء مظلمة ظلمة قلوب الطغاة تتشابه كلها بحيث لن تجد فرقاً بينها ..

كل شيء يمر بتكرار لا يتجدد ؛ أصبح التجديد كلمة منكرة في قاموس السجناء لا تدركها عقولهم و حواسهم،هي أشبه بالأساطير التي يرويها عجوز الحي لأحفاده الملتفين حوله و قد فتحوا أفواههم مشدوهين و كأن حاسة السمع تحولت عندهم إلى الفم بدل الأذن؛ثم تمر الأيام و يستلقي أحدهم على ظهره و قد فتل شاربه و هو يستحضر تلك الأساطير و كيف أنهم صدقوها،فكانت أقدامهم لا تقوى على حملهم في ظلمة الليل خوفاً من الغول الذي تسلق شجرة <<النيم>> الضخمة و ينتظر مرورهم بأسفلها حتى يتقض عليهم و يجري بهم بعيداً ليأكلهم،ثم يضحك ضحكة لا يعرف سببها و يقصها لابنه الذي يكرر نفس المشهد فيفتح فاه و يركز بكل حواسه و هو الآخر سيحكيها لابنه،بدون أن يحاول إضافة كلمة واحدة للأسطورة....

***



بدا السجناء على وجوههم بعض التفاؤل و الأمل أو لعله خيالات و أحلام يقظة فارغة لا رصيد لها من الحقيقة ، و الأذن تتردد على سمعها في كل لحظة أخبار العفو العام الذي سيصدر عما قريب..

كان كل شيء على ما هو ،غير تلك الروح الجديدة التي سرت كنسمة تغسل كل مرارات السجن مع أول بشريات الانفراج،لينسى الجميع كل ما عانوه و كل الذكريات التي نقشوها على هذه الجدران التي ألفتهم و اعتادت عليهم و اعتادوا عليها ،حنت إليهم و حنوا إليها فأودعوها أسرارهم و بثوا إليه ما يحسون،دون أن تشعرهم أنها قد تعبت من حمل آلام الناس،تعبت من كل تلك الأعباء التي يلقيها السجناء من قلوبهم عليها و هي صابرة..تعبت و آن لها أن ترتاح هي الأخرى فقد ازدحمت في ذاكرتها أقاصيص الأبرياء و توب المذنين و أسرار الراحلين الذين رحلوا أمام عينيها و هي تقف عاجزة عن إبقائهم..كم آذتها الألفاظ القبيحة التي تسمعها صباح مساء،كم آذتها رائحة الدم المسفوح على الأرض من شدة التعذيب..
آن لها هي الأخرى أن ترتاح ... و فعلاً صدر العفو العام و خرج الجميع و استهل رمضان أيامه بخروجهم .. يومها كانت الدموع أكثر شيء توفراً و كانت الجدران شاهدة عليه،كم هي مسكينة فحتى هذه اللحظات يكون قدرها أن تتحمله و هي التي كانت تظن أنها ستمر بهدوء و ترحل دون أن تلقي الوداع كما رحل أبو محمود بهدوء دون أن يزعج أحداً..
هاهو ضوء الصباح من جديد قد حطم القيد و خرجت الحمامة من طوقها تترنم بأناشيد الحرية و الفجر الباسم يطلع في الأفق..و محمود و سامي يتمعنان النظر في هذه الجدران و حدهما يشاركانها الإحساس و يبادلانها شعور الامتنان و إن كانا لا يتمنيان أن يعودا إليها،لكن ذكراها لن تراوح القلب .. فالفجر و إن طلع فلن يمحو سمر الليل..
(٧)ألم بطعم خاص





كانت الدنيا مفتوحة أمامهما من جديد ،قد تحطم ذلك القيد الغليظ و انكسرت القضبان الفولاذية و هاهي الحياة تعانقهما من جديد..
الهواء الذي تمنى محمود ذات يوم أن يجد فرصة ليستنشقة لحظات قليلة هاهو الآن بين يديده يعبث به كيف يشاء شهيقاً و زفيراً ،عيناه تدوران ترقبن هذه الضجة و الحركة التي تعج بها الحياة التي كان مغيباً عنها لأربعة أعوام ... ظل الأشجار.. صوت العصافير .. خرير الماء .. زرقة السماء .. ضوء الصباح .. عتمة الليل ؛ لقد كاد ينسى كل هذه الأشياء و يفقد الإحساس بها مع مرور الأيام..

***

عاد محمود لبيته الهادئ الوقور الراقد على أطراف البلدة؛كان السكون يخيم البلدة فقد كان الناس في صلاة التراويح؛توضأ ثم خرج للمسجد ،و بعد الصلاة انقض الناس عليه تسليماً و تقبيلاً حتى أحس بالإعياءلم يعد يميز الوجوه .. أخذه المصلون لبيته و أحضروا له الطبيب..
نام محمود ليلته و أمه واقفة على رأسه و يديها تداعب سحنته و تخلل شعره و لحيته يغالبها النعاس أحياناً ثم تصحو فزعة ألا يكون محمود حلماً سرعان ما يتبخر،فتسكن روحها عندما تجد نائماً أمام عينيها ،و ينهمر الدمع من عينيها بسخاء متذكرة الأيام الخوالي و باكية على زوجها الراحل..
طلع الفجر و استيقظ محمود فوجد هذه العجوز المسكينة أمامه و تقول:السحور يا شيخ محمود !!
قام يقبل يديها و قدميها و رأسها و هو يبكي بدمع حار كاد أن يخط آثار الكيّ على خديه..
تناول طعامه ، ثم خرج لصلاة الفجر و الأرض تمور من حوله فقد رحل الكثيرون عن هذه الحياة فترة سجنه و كبر الكثير الشيء الوحيد الذي لم يتغير و بقي شاهداً على القهر دراجة والده الهوائية التي كان يركبها ،مر شريط الذكرى ببطء و مرت معه آلامٌ لم تغسل بعد..



جلس في المسجد بعد الصلاة و الناس يسلمون عليه و يحدثهم بعض الذكريات،ثم انصرف لبيته فقد كان في شوق شديد لأمه..

***

لم تكن الفرحة هي إحساس محمود الأوحد حينها ،فلا يزال للألم مساحات كبيرة من نفسه و إن كان يخفيها عن الناس،هو ليس سعيداً كما يظن الناس؛نعم قد كسر القيد الثقيل الذي كان على يديه،لكن آثاره لا تزال مخطوطة لا على السطح و حسب إنها غائرة مختلطة بالعظم و اللحم ،فكيف يمكن أن تزول؟
ما يزال الذل الذي تركه قائماً على سوقه .. طبقة مستبدة تحكم العالمين بقبضة حديدة ، تستعبدهم و هم في سكرة لا فواق منها فقد شربوا الخمرة حتى اختلطت بدمهم الذي يسفك صباح مساء و يموتون ليحيى القائد الذي لا يعتبرهم إلا قطيعاً من الشياة؛نعم قد يوفر لهم بعض الخدمات من أمن و ماء و كهرباء .. لكن هذه الخدمات لا فرق بينها و بين الخدمات التي تقدم للقطيع الذي يذبح أفراده ليحيى صاحبه .
يكاد أن يقول ليتني لم أخرج من السجن على الأقل كان يكفيني أن أعاشر الذين رفضوا أن يساقوا سوق القطيع ، يكفيني أن أكون بين الذين تحطمت أمام عزتهم فنون الطغاة الفاجرة..

***

مسكين أنت يا محمود !!
لن يفهم كلامك أحد ، فما زلت ترطن بهذه الرطانة الغريبة عن قومك؛مسكين أنت ستظل غريباً بينهم !!
ربما تكون الأيام معلمة لهؤلاء ، لكنك ستظل تردد كلمات لا يفهمونها و لا يفقهون رسمها و لا تهجيئتها دعك من إدراك مدلولها..
أي ألم هذا الذي ستعانيه يا محمود ، إنه ألم الغربة في الوطن و الوحدة بين العشيرة!!
لن تخفف منه شيئاً عودتك للحياة من جديد و معانقة الأهل بعد طول غياب و لا منظر الشمس الذاهبية التي تنسحب بهدوء و كأنها تود



البقاء لولا أن قدرها الرحيل فتبتسم تلك البسمة التي تقول معها سأعود غداً فلا تقلق يا صغيري..

ألم خاص ... بطعم الألم



(٨) الجناح الآخر

لم تكن الآلام لتحطم محمود و هو الذي تربى على معاني الصبر و الإيمان بقدر الله في رحاب القرآن و السيرة العطرة؛حيث تتوقف كل أقاصيق الصبر و الإيمان و التضحية معلنة اجتماعها في نفس صاحب السيرة الذي قضى حياته من أجل فكرة امتلكت جوانح نفسه التي كانت تعد لأمر عظيم و هي تستأنس بالوحدة و مراعاة الأغنام في البادية ..

***

ما كان ليدع حلم والده الذي أفنى عمره ليراه حقيقة يذهب مع ريح الشتاء الباردة التي أخذت محمود إلى غياهب السجون .. عاد محمود ليواصل دراسته و يكمل سنته الأخيرة في الجامعة ..

بقيت زاوية من زوايا روح محمود تتقد فيها شعلة لذيذة الألم تحرقها النار بلطف تأكل أطرافه فتخرج أزكى ما في كيانها رائحة تسحر النفوس و تنساب مع الدم تختلط بالعظم و اللحم فتسري في طول الجسد و عرضه تتسرب في كل جزء من أجزاءه ... إنه ألم آخر؛لكنه الألم اللذيذ الذي يحرم صاحبه النوم و يجعله رفيق السهاد يتسامي به بعيداً عن نزوات شيطانية تغزو هذه الزاوية من زوايا الروح فتعمل على تدنيسها و تلويثها فتغدو وحشاً شيطانياً لا يعرف سوى الفاحشة فتغيب عنه كرامة الإنسان

و قد فعلت نزوات الشيطان ما فعلت في ضمائر الناس حتى أحالت هذه الزاوية ماخوراً للفاحشة لا مكان فيها للإنسانية التي تميزه عن الحيوان،فلم يعد يراها الإنسان إلا حيوانية فاحشة موغلة في الرذيلة..

***

أعد محمود أغراضه و حزم متاعه مودعاً أمه فستبدأ الامتحانات عما قليل ، كانت أمه واقفة ترقبه من بعيد على غير عادتها في إعداد حقيبته..



- إن شاء الله ستأتي عما قريب من تعد لك حقيبتك يا محمود ... سأخطب لك أخت صديقك بعد انتهاء الامتحانات ..
اختلطت الدهشة و الفرحة و تجاذبتا سحنته و أربكت كيانك و امتنع لسانه عن الحركة بعدما خطمته المفاجأة ...
خرج محمود دون أن يقول جواباً و كلام أمه يتردد في أذنيه و يتحرك شريطٌ ما في ذاكرته دون أن يدري ما هو..وصل السكن الجامعي حيث كان باستقباله سامي ، توجها بعد الغداء للمكتبة و عكفا على كتبهما ،ثم استلقى كلٌ منهما يرقب صفحة السماء التى انتظمت فيها النجوم كما تنتظم الحروف في أسطر الطروس ؛ محمود كان يسلب تفكيره ذلك الإحساس الرقيق العفيف الذي لم تلوثه نزوات الشيطان و انتكاسات الفطرة البشرية التي ارتكست في حمأة الحيوانية فعجزت عن كبح جماح شهوتها كحصان بري لا سايس له .. فتحول الحب عندها رغبة في التدمير كثورة طائشة لم تجد من يعقلها و صارت عبدة لنزواتها لا يهمها سوى إشباعها و إطفاء نارها التي يوقدونها ببشاعة أدبهم و فحش حديثهم ..
التفت بسرعة لسامي و قال له:أريد أن أتزوج أختك يا سامي !!!
ابتسم في وجهه سامي ابتسامة تمحو ظلام الليل الذي أسدل على الأرض ثوبه فلمعت بسمته كودق انفرج عن سواد السحاب أنار السماء ليجلي للناس الأمل بالحياة الذي تحمله السماء و يصبرهم فعما قليل سترسل السماء خيراتها للأرض التي تتلهف لاستقباله..
- قد عرفتك حسن الخلق و الدين،صديق العسر و اليسر يا محمود؛لا عليك خيرٌ إن شاء الله..المهم الآن أن نجتاز الامتحان ..

***

مرت الأيام سريعاً تتعجل الحلم الذي عادت فيه الروح بعد أن حاول الطغاة اغتياله و تحمل معه البلسم الذي يمحو صدأ الروح التي أراد الطغاة إفسادها و موتها..
انقضت امتحاناتهما ؛ عاد محمود لبلدته و اتجه مع أمه إلى حيث يسكن سامي؛و خطب محمود ياسمين،و عن قريب سيتزوج ..



***

إن سنوات القهر و الاضطهداد تعمل في النفوس أشد مما تعمله يد الحداد التي تنتج سيوفاً لا تعرف إلا قطع الرقاب و رمي الأشلاء .. إنها تذهب سكينة النفس و حب الحياة؛فتكون الذوات مريضة بالانتقام لا تحمل للمجتمع سوى الكره ...

لكنما الأرواح التي تؤمن بالعدالة الإلهية التي ستنصف المظلوم و إن لم تجد منصفاً في الأرض فهي تخرج تحمل الحب للناس و تغتسل من الأمراض ... و هكذا خرج محمود بروح دافقة بالعطف تحاول غسل ما علق بها من مرارات السجن ..

لكن هذه الروح كانت تتوق للكنز الثمين و النصف الآخر الذي يكمل الصورة الرقيقة لتبدو أحسن ما تكون ، إنه الجناح الآخر الذي لا تحلق و تكمل الروح ارتقاءها إلا به ..



(٩) و تحقق الحلم

عاد كلُ شيء لطبيعته؛نبوغ محمود في الدراسة وذكاؤه؛ و انقضى العام ليتخرج حاملاً درجة الامتياز و يحقق حلم والده الذي لم يجد سلواناً و لا جزاءً لكده في الدنيا ،و مات مهيض الجناح يحمل كل آماله معه إلى قبره حيث لن يعتدي عليها أولئك المجرمون!!

عاد محمود إلى بلدته الوادعة بعد أن عُين معيداً بالجامعة كما تمنى والده ؛ اتجه إلى قبر أبيه في لحظة وفاء يهرق فيها دمع الرجال العزيز و تتوقف البلابل عن الصدح ،يعم الأرض السكون إلا من هبطات الدمع على الثرى و كأنها كُتل من الصخر تهبط على الوادي!!

- نعم يا والدي،قد تحقق الحلم الجميل الذي كنت تسقيه من قاني دمك و تطعمه لحمك حتى بدا النضو على تقاسيم الوجه التي تظهر جمجمتك المتحجرة خلف الرق الهزيل ..

إنه سر ما في هذه الحياة،يسعى الشرفاء كدحاً و جداً يعدون خلف الأحلام التي عزموا على تحقيقها؛لكن النهاية تدركهم قبل أن يبلغوا تلك الأحلام التي تتبدد أمام أعينهم مع اقتراب نسمة الموت مداعبةً أنفاسهم الأخيرة و الروح تنسحب برفق و حنان من هذه الأجساد الكريمة لتطير بها الملائكة مزفوفة إلى الجنان ..

لكن هذه الأحلام تبقى مرسومة على الأرض قد نُقشت نقشاً تحار رمال الصحراء في طمره فهو غائر إلى أحشاء الأرض التي تحتضنه ليأتي من بعده من يحمل بيرقه عالياً و يكمل المسار إلى آخر المضمار .. أي سعادة يحس بها الأب الذي سقط قبل النهاية و قد استنفر كل قواه حتى نفدت فخر صريعاً و هو يحمل الراية،لكنما الأهداف السامية لابد أن تتحقق يوماً ما!!

***

هكذا الحياة تمضي عجلتها تحمل كل ما في الأرض ... أيام البؤس و الشقاء التي امتزجت بها صفاء الروح و صقل النفس قد مضت و ها هي بشريات اليوم تكاد تغسل كل المآسي و الآلام ..



الزوجة الحنونة التي تجمع شمل الروح المشتت و تنظم حياتها عقداً يزيل آثار الحديد و السلاسل التي أثقلت الرؤوس و انحنت لها الرقاب العزيزة ..

إنها المرأة حين تسمو على نزعات الكبر و العُجب بالنفس و تتخلص من رواسب الأنوثة التي راكمتها الأجيال و ورثتها من السنين..

و قلّما تكون المرأة في هذه المثالية التي تنكرها اليوم و تعدها عبودية للرجل الذي أخذت على نفسها تكدير حياته و إتلاف روحه؛لكنها في الحقيقة تملكه بهذا الدلال و الإحسان؛و لِمْ تكون الزوجة سكناً إن لم تكن كذلك ..



(١٠) بشرى

[الكلام بين الأقواس للأستاذ سيد قطب]

الحمد للّه!!

يأتي البشير يحمل معه نسمةً رقيقة تزيد الحياة رقة و عذوبة .. لقد جاء جهاد الذي انتظره محمودُ طويلاً ..

جاء و الشوق يشتعل كل يوم و لا يخبو،تسعة أشهر كانت مدة الانتظار التي تزداد حرارتها يوماً بعد يوم ..

***

ثمرة الحب التي لا تُجنى إلا في مهد الحب النظيف الذي لا تلوثه نجاسة الإثم و العار التي لا تطيق الطهارة التي تثمرها العفة و ترعاها بحب مماثل و لا تلقي بها بعيداً كما يفعل الآثمون الذين تتربص أعينهم نظرات الناس يخبئون فجورهم عن العيون التي لا تراهم إلا مجرمين..أما حين تعمى الأبصار فكل شيء يختلف عن حقيقته و يندس خلف مسميات الحداثة!!

***

إنه إحساس الأبوة الذي يدفع عجلة الحياة للأمام مكملة دورتها إلى أن تبلغ النهاية .. فتتزن كفة الحياة بلاعبين جدد يحلون محل القدامى الراحلين ..

و هي الأرض تتجدد أزهارها و ثمارها،تخرج البراعم الجديدة لتتنفس الحياة المطردة الزائدة باستمرار مع عدد السنين التي تتكاثر عاماً بعد آخر ..

أما الموت فما هو (إلا قوة ضئيلة حسيرة بجانب قوى الحياة الزاخرة الطافرة الغامرة ، و ما يكاد يصنع شيئاً إلا أن يلتقط الفتات الساقط من مائدة الحياة...كل شيء إلى نماء و تدفق و ازدهار)

فكم من قادم جديد إلى الحياة أتى مع جهاد فـــ(الأمهات تحمل و تضع،الناس و الحيوان سواء...الأرض تتفجر بالنبت المتفتح عن أزهار و ثمار؛السماء تتدفق بالمطر،و البحار تعج بالأمواج؛كل شيء ينمو على



هذه الأرض و يزداد...و الحياة ماضية في طريقها ،حية متدفقة فوارة؛لا تكاد تحس بالموت أو تراه)

***

لقد أتى "جهاد" غاسلاً آثار الألم الذي نقشته السنوات على جبين أبيه؛أتى ليسكت صرخات الحزن على أبي محمود ؛فالموت لا محالة مقتطع أجزاء من هذه الحياة،لا محالة يجلب الآلام ، نعم (لقد تصرخ مرة من الألم ،حين ينهش الموت من جسمها نهشة،و لكن الجرح سراعان ما يندمل،و صرخة الأم سرعان ما تستحيل مراحاً...و الموت قابع هنالك ينهش نهشة و يمضي؛ أو يتسقط الفتات الساقط من مائدة الحياة ليقتات) ..

***

و هاهو البرعم الجديد ينمو و تتفتح أزهاره ليحرك الحياة من حوله،ليرسم البسمة على وجه جدته التي رسمت مرارات الأيام خطوطها على وجهها تجاعيدا؛إنه بشرى الحياة : مهما كانت قسوة الآلام ،فالحياة لا تزال تمضي في طريقها ،لن توقفها لحظات الفرح و لا لحظات الحزن؛فما هي إلا نقاط في خطها الطويل..



(١١) لماذا "جهاد" ؟!

و يكبر البرعم الذي نبت يجدد الحياة و يشد روابط الروح بين الجناحين الذين ائتلفا ليندفعا و يحلقا يرددان أحاديث الهوى ..

جهاد كأبيه حدة النظر،التعطش للمعرفة،و حب القراءة وراء السطور و ما خلف العبارات القصيرة من معان و دلالات ..

***

صبّح جهاد والده قائلاً:لماذا أسميتني جهاد يا أبي؟

- هنا عدّل محمود جلسته و أجلس جهاد مقابلاً إياه بوجهه قائلاً:لأنه ذروة السنام يا بني...

هو العز الذي يحمينا من اعتداء الطغاة و إجرام الأشرار،و لأني أُريدك أن تحيا معتزاً بدينك و شعائره .. و يستمع البرعم المتفتح لكلمات أبيه التي تخترق صدره الصغير و تكون شخصيته التي يواجه بها فيما بعد ..

و إحساس العزة و الافتخار الذي يتلقاه اليوم و هو يفهم لماذا عليه أن يكون "جهاد" .. ليس الاسم مجرد لفظة ينادى بها الشخص،إنها عنوان يُعرف به،يصبحه طول حياته و يورثه للأجيال المتعاقبة التي تأخذه جزءاً من كيانها ...

- أترى يا جهاد كل هذه الجراح و الذل الذي أطبق علينا ما هو إلا لأننا نكثنا عن ديننا و تركنا ذروة سنامه و ما أمرنا الله به فكانت العقوبة من جنس العمل...

إن واجبنا تجاه البشرية أن ننتشلها من الظلام التي أسدل عليها ثيابه السوداء التي غطت على بقايا السُرج المنيرة،فتأخرت عن ركب الحياة و عادت القهقرى إلى طباع الحيوان..لم تعد تعرف للفضيلة رسماً و لا للأخلاق معنى؛لم تعد الحياة إلا شراهة الذئاب و ولوغها في دماء النعاج من أجل أن تبقى هي!!

منطقها الوحيد الذي تفهمه منطق الغابة حيث البقاء للأقوى،لا تصدق أن قانون الغابة يقول:ساعد غيرك لو تدري ما معنى حب الغير،كما يحاولون إفهامنا في [ماوكلي .. فتى الأدغال] ..





لقد ضاعت عندهم معاني "الحب" و "المساعدة" في عالم البشر،فلجأوا إلى خيالهم بعيداً عن واقعهم فتمثلوها في الحيوان .. "لوري" التي أودعوها معاني الأمومة و رقتها و هي في الحقيقة لن تكون أبداً من عشيرتها –الذئاب- فجعلوها مربية الطفل اليتيم الذي لم يجد من يكفله عاكسين صورة الطفل عندهم الذي يدفع إلى أجيرة تعتني به بدل أهله فأمه و أبوه مشغولان في جمع القروش التي تصرف على السفاسف، فتتبخر كل معاني الأمومة و الأبوة في عالم الإنسان .. و يعطونها عاطفة الحب و الأخوة و يكون الثعبان حكيماً يمد يد العون!!!

و يجيئون بمن يحاول إقناعنا أنها الحضارة و التقدم و قيم الإنسان التي لا نعرفها نحن المتخلفون!!

***

أسميتك "جهاد" لتكون حياتك كلها جهاداً يا بني من أجل الخير و العدل و الرحمة و المساواة التي فقدت البشرية حاسة إدراكها بعد أن تسلمت قيادتها أيد غير قمينة بها فانحرف ذوقها الإنساني و انطلقت بلا كوابح كالكلب العقور تنش ما صادفها بحيوانية يترفع عنها الحيوان السوي..

و تدخل الحديث "ياسمين" –أم جهاد- تزيد من همة ابنها الذي كان حظه أن يُربى على يد هذين الجناحين المتناغمين،الذين تعرفت روحيهما و ائتلفت في السجن يوم اللقاء الأول و سرى في عروقهما ماء الحب اللذيذ





(١٢) النفير

تتزايد كثافة الأخبار القادمة من الشيشان و ما يفعله الروس بهم، و بطولات المجاهدين هناك،و يتحدث الناس عما يحدث في القوقاز في مجالسهم و هم يطلبون من الله أن يفرج عنهم و يحتسون القهوة الساخنة و ينفخون دخان سجائرهم بألم شديد!!!

لم يكن تفاعل الناس مع جهاد الشيشان في نظر محمود إلا خداعاً للنفس؛ و إلا فماذا يفيد لعن الروس من شخص يجلس على رصيف الأحداث لا يفعل شيئاً إلا النظر لمن يمر بالشارع و أفعاله ثم يعلق على تهور ذلك السائق و مهارة الآخر !! يجلس واضعاً قدماً على الأخرى على أنغام الموسيقى و هو ينادي صاحب المقهى أن عجل بالقهوة الساخنة و هو يتحدث عن هول ما يفعله الروس بالشيشانيين الذين لا جرم لهم إلا أنهم قالوا: ربُنا الله !!

إنه التفاعل السلبي مع الأحداث؛كل ما نفعله أننا نجلس أمام الشاشات و الإذاعات نتابع الأحداث دون أن يكون لنا دور في صناعة الحدث و كأننا نشاهد مباراة كرة قدم نشجع أحد الفريقين دون أن يغير في الملعب شيئاً!!!

***

عاد محمود ذات مساء إلى البيت و هو يقلب الأمر في رأسه و يدبر؛دخل مكتبته و جلس على المكتب يرسم و يخطط على ورقة بيضاء؛دخلت عليه ياسمين و هي تقول:ما الأمر أبا جهاد؟! فيم تفكر؟

- ألا ترين ما يحدث يا ياسمين من حولنا؟

هذه الشيشان يدكها الروس و معاناتهم مستمرة و نحن لا نفعل شيئاً سوى التصفيق إن أحرز المجاهدون نصراً و البكاء و العويل إن تمكن منهم الروس..أين واجب النصرة؟ لماذا لا يحرض العلماءُ الناس ليجاهدوا الروس؟ لماذا تظل سفارات الروس في بلدانا و رائحة أجساد أهلنا المحترقة تفوح منها و دماءهم تجري فيها؟ كيف نصافحهم و لا نرى أثر الدم في أظفارهم؟

و كيف...و كيف..و كيف؟





كيف ننظر إليهم و لا نرى الحقد الدفين يتطاير شرراً من أعينهم و أنيابهم التي سال لعابها اشتهاءً للحومنا؟
ألهذا الحد قد تجمد دمنا؟
و تجري الدموع من عينيهما و يتعالى النحيب...
- لماذا تنوح كالنساء يا أبا جهاد و تجلس في بيتك تندب الحظ؟!
- نعم؛يا أم جهاد..لماذا أجلس؟ ؛ لم أعد أطيق قعود الذل هذا..يجب أن أحمل سلاحي و أنطلق لنصرتهم..

***

ذهب محمود لصديقه سامي؛ اتفقا على الذهاب سوية إلى حيث تعلو راية الجهاد..
سامي كان يفكر في الأمر ساعة اتصل عليه محمود ليخبره أن يطلبه لأمر ما ،فأجابه سامي:و أنا أريدك أيضاً..
لقد كانا يفكران في الأمر ذاته..كانا توأم روح يتشاركان الهموم و الأفكار..و الأرواح إن وصلت بينها حبال الحب و الإخاء لم تكن الأجساد إلا قوالباً تحفظ هذه الأرواح و تعطيها واجهتها الخارجية..

***

جمع الصديقان –أو قل التوأم- أطرافهما و خرجا يطلبان ما عند الله ..
وقف محمود يتأمل مشهد قريته الراقدة على هامش الحياة،يطالع أشجارها و صغار الماعز التي تلهو بحرية لا يقيدها صفير المركبات المزعج ...
ليست الحياة كلها إلا سلعة يعطيها الله - عز و جل- لعباده بلا مقابل ثم يطلب منهم أن يبذلوها لنصرة دينه؛فأي فضل هذا؟ و أي كرم هذا؟
ما أسهل الأمر،لولا أن الإنسان يركن لعالم الشهود و تؤثره نفسه القنوعة على الطموح الذي يشري الشهود ابتغاء تحصيل الغيب..تبدو المسألة تأخذ من الصعوبة ما يكفي ليتراجع أصحاب النظرة القصيرة من لا يرون أبعد من موضع أقدامهم التي تتشبث بالأرض و هذا الدس الذي خاب صاحبه..أما صاحب الإرادة و الإيمان فينظر لما أبعد من



قدمه؛ إلى حيث يمتد بصره امتداد الأفق على طول الحياة إلى أن يرى النهاية حيث الجنان...

(١٣) في بلاد القوقاز

الشمس خجولة تتوارى مع تساقط الثلوج على الأشجار التي اكتست خضرتها البياض كما توضع الكريمة على الكعكة ..

محمود و سامي قد اقتربا من المعسكر يرافقهما الدليل الشيشاني و هو يحدثهما عن بطولات المجاهدين و مقاومتهما للروس و كيف أنهم استطاعوا هزيمة هذا الدب الذي ثارت فيه تركة ستالين و شهوته ليشن حملته المتوحشة هذه على أهل الشيشان الذين رفضوا أن يكونوا ولاية روسية تسبح بحمد الكريملين..

هي ضريبة التمرد على الطغيان و رفض الخضوع أمام الاستبداد ،ليست باليسيرة التي يدفعها كلُ ناعق يزعم التحرر...لا يقوى عليها إلا الصادقون الذين يرجون من وراء تمردهم هدفاً أسمى من انطلاق بهيمي؛إنها ذوات تمردت على قوى الظلم التي تأبى للبشرية العيش في سلام ،تمردت لتنشر الخير و السلام؛و أمامها تهون كل التكاليف فالمسألة أكبر من الأشخاص..

***

أما داخل المعسكر فهؤلاء الذين لا يجدون ما يردون به البرد و الثلوج غير هذه الأصواف البالية شاهدة على سنوات الجهاد ،و أن العزة ليست في الدروع و قد ارتعدت روسيا حفيدة القياصرة بتكبيرات هؤلاء الصعاليك الذين يتقافزون على الجبال و أهون ما يملكون ما نسميه "الحياة" و قد وهبوها و ينتظرون أن تُؤخذ في كل لحظة..

شعور مرعب؛أليس كذلك؟!

ليس هنا!!!! فهنا مفردات أخرى و لغة لا يفهمها الآكلون حد التخمة،النائمون على فُرش "الأمن"..حتى من نعدهم فقراء لا يفهمون لغة المطاريد ..

و يرحب المطاريدُ بهذين الصعلوكين الجديدين...الأحضان الحارة التي تُذيب ثلوج القوقاز و قد غارت الأقدام فيها حد الرُكبة؛و البسمات الحنونة تُزيل رهبة الموت و تسخر من الحياة ..

***

و ينخرطان في التدريبات يستحثان الأيام اشتياقاً لإهراق دم العلوج الروس على بياض الأرض لتبقى دماء العلوج شاهدة تحدث بها الأرض شقيقاتها أنها ابتلعت دببة روسيا كما ابتلعت الشامُ الرومَ و صليبَهم ..
ينتهي التدريب و ينتظر المقاتلون الجدد توجيهات القيادة لينطلقواْ في أولى معاركهم ،و قد بات الانتظار ألد الأعداء!!
فهاهو يقف منتصباً كالجبل في مشرق المدينة يحجب عنها ضوء النهار و قد مل الصبية طول الليل و تقلبات الفراش،يقف الجبل عارضاً أمام دخول المشتاق للبلدة،إلا أن هذا يمكنه الالتفاف على الجبل،و أنى للمنتظر أن يلتف على جبل الانتظار !!! و تتثاقل الساعات تمشي الهوينى متسكعة تستفز أولئك المنتظرين

***

ثم تأتي التوجيهات بالذهاب لجبهات القتال و محمود لا يسعه جسده النحيل من الفرحة و يمسك بعشيقته الروسية التي سيخترق بها أجساد أهلها!!
ستقاتل العشيقةُ أهلها فهي على دين حاملها ،لا تعبأ بالآخرين،فما عساهم يفعلون و هي لا تسمع أصواتهم الناقمة و لا تحس بركلاتهم الطائشة و لا تلمح نظراتهم الحانقة..هكذا هي بلا إحساس!!!
مجرد آلة قتل صماء،همها الوحيد أن تطيع أوامر سيدها...
من الصعب جداً تصور هذا العشق المجنون بين محمود و بين هذه القاتلة الصماء التي لا تعرف الوفاء !!
كم هو جميل هذا الوفاء الذي يعيد هذا العاشق إلى الأرض التي ترك فيها تلك الوفية التي أخبرته أن الوفاء أكبر من أن يغدر به البعد و أن الحب أكبر من أن تنسيه الأيام..





(١٤) الرسالة الثلجية

انطلقوا لميدان المواجهة الذي عشقوه قبل أن يروه فالأذن تعشق قبل العين أحياناً؛لن تفهم تصرفهم و شعورهم هذا فهم مجانين بمقياسنا،يقطع هذان الأحمقان و من معهما من الحمقى آلاف الكيلومترات ليعرضوا أنفسهم للموت الذي يذهبون إليه بفرح و سرور !!!

و تحلق في السماء تلك الحشرة الحقيرة التي تتقيأ لهباً يُحرق ما يقع تحت رحمتها؛إنها لا تعرف الرحمة فهي مجرد آلة قتل صماء !!

***

ثم تدور الاشتباكات و تلتحم رسائل الفريقين..

هنا يتذكر محمود ذات الخمار الأسود التي خلفها في الديار..

الآن يدرك مقالة عنترة :

و لقد ذكرتك و الرماح نواهل مني ## و بيض الهند يقطر من دمي ..

لم يكن يكذب حين قال هذا فالحب و الحرب رفيقان؛فالحرب ليست إلا الشعور بالحب الذي يدفع لهذه المقامرة لكنها مقامرة تضمن للمقامر الفوز إن استمر حتى النهاية، فلولا وجود الدافع القوي الذي يجعل الحياة حقيرة أحقر من أن يتشبث بها الحبيب لأن الحرب ستجعله يلتقي المحبوب،كيف لا و قد أعد المحبوب لهذا المقامر من الكرامات ما لا يعده لأحد ، و هناك في الجنة سيلتقي من دونه من الأحبة ، سيلتقي بالتي سحرته عند أول نظرة في السجن ..

***

و تصل الرسالة التي تفوح منها رائحة العزة و الإباء مخلوطة بالدماء و الأشلاء التي تفوح منها رائحة المسك بلون الدم ..

إلى زوجتي الحبيبة ..

ليس هناك ما يدعو للقلق،فكل ما أجد قد خرجت من بيتي أبحث عنه؛و ما الموت إلا أهون الأشياء فهو بداية النعيم الذي ما خرجت إلا لأحوزه بدمي و عرقي..



و ليست الحياة إلا فكرة تنعكس على حركات الإنسان و سكناته ،ليست إلا فكرة تقتات اللحم و العظم و تشرب الدم ؛و بدون هذه الفكرة يكون الإنسان قد آمن بخرافات دارون ،فلم يعد إلا كائناً متطوراً يفوق الحيوان في جثمانه ،لكن روحه و عقله ما يزالان يتصرفان كالحيوان ،كل همه إشباع بطنه و فرجه ..

تبدو الحياة أمام ناظريه سلسلة تكونها حلقات الأحداث ،كل حلقة تقود لأختها منتظمة كحبات المسبحة يقف على رأسها الموت عند اكتمال دورتها ،لكنها الدورة الوحيدة للإنسان !!

إنها ليست هدفاً بذاته إلا عندما ينحط الإنسان لدرجة الحيوان حيث الصراع من أجل البقاء بين وحوش الغابة ..

أتعلمين ؟ كل طلقة أرسلها من صاحبتي الروسية تنازعيني فيها حتى أحس أنك تحشرين بنانك الناعم في الزناد .. لم تغيبي عن خاطري حتى أتذكرك ،كنت أراك في وجه سامي المبتسم للموت محاولاً الالتقاء به بلا فائدة ..

سيطرقون بابك يوماً ما و قد يأخذونك معهم ؛إنهم لا يعرفون للنساء حرمات .. قد انتزعت من قلوبهم الرجولة و المروءة و هم على صف المعاينات ،سيكسرون بابك بوجوههم التي تشبه في رسمها وجوهنا ؛لكنها وجوه بلا روح ..

أكتبُ هذه الرسالة و قد تجمد المداد بين يديّ و أنا أحاول أن أكتب به رغم ذلك ..أجعله يتحرك ،يفارق الجمود بحرارة شوقي الملتهب إليكِ ...

أكتبها رسالة ثلجية ،لكنها لا تذوب كما يذوب الثلج ففيها من المعاني ما هو عصيٌّ على الذوبان..



(١٥) لحظة رحيل

الروس يدكون كل ما وسعه شيطانهم ..

الحجارة .. و البشر .. والشجر كلهم مجرمون يجب تطهير الأرض منهم ..

***

المجاهدون على مشارف قروزني ؛يبعثون بعض الأمل يشعلون جحيماً للروس

قتال عنيف .. محمود مرابط باحدى الجبهات يصد مع إخوانه تقدم الدب الذي يهلك ما يسقط بين يديه..

***

كثيرة هي الرؤى التي يقصها المجاهدون عن الشهادة و الجنة و حور العين

في حياتهم الأرضية يعيشون غير ما يعيش القاعدون .. يعيشون و هم في الأرض عيش المنعمين في الجنة ،يضعون أسلحتهم لبعض لحظات يفترشون التراب أو الصخر أو الثلج فيتنقلون لعالم آخر يأخذون بعض الزاد لرحلة طويلة يتمنى أحدهم لو تنقضي بسرعة ليتخلص من آخر قيدٍ يمنعه من دخول الجنة –أنه ما زال يدبُ في الأرض!- ..

يستيقظ المجاهد مستبشراً بما رأه في غفوته هذه : اللّه أكبر ..

اللّه أكبر ..

رفاق الدرب ممن سبقوا قد لبسوا البياض يبشرون من ينتظر أن الجنة أيضاً تنتظر

***

ينهض من نومه على صوت طائرة تحلق في الفضاء ..

محمود ،هذه غارة .. ثم تعود الطائرة من حيث أتت ،يبتسم سامي ليقول لمحمود : اقترب الفراق يا أخي ..

لقد مللت طول الانتظار ،حتى خشيت أن اللّه لم يقبلني .. قريباً إن شاء اللّه أعود للجنة ..



كان وجه سامي متهللاً و هو يحدث صديقه محمود ،و الآخر يجيبه برقة : أترحل و تتركني وحيداً يا سامي ؟
ألم نخرج سوية من ديارنا ؟
أتظنني أطيق فراقك و قد أخذت نصف قلبي ؟
إني لأدعو الله أن نرحل سوية .. نرحل سوية لأني لا أطيق صبراً في الأرض بعدك إن رحلت قبلي ،و أريدك رفيقاً في الجنة .. كما كنت رفيقاً في المسير إليها ..

***

و حياتنا أحداث يصنعها المحيط .. برجاله و عُماره ..
لا معنًى لها بغير الحركة ،و لا يُحدث الحركة إلا الإنسان .. ليست كل الحركات تترك أثراً في حياتك ،قلة هم أولئك الذين تؤثر خطواتهم في حياتك ..
قلةٌ من يحزنك سقوطهم ..
قلةٌ من يُسعدك نهوضهم ..
قلةٌ من يحزك فقدهم ..
قلةٌ من يُسعدك الحفاظ عليهم ..
قلة هم الفاعلون في الحياة أيضاً ..
بين الحزن و السعادة تسير حياتنا ،كدرب طويل نشقه في المجهول و عند نقطة ما تكون نهاية الدرب حيث الإجابة النهائية لسؤال الفوز و الخسارة ،أو أن الحياة طفل يتأرجح بين كفين –الحزن و السعادة- يتقاذفانها !!
سؤال يدفع نفسه بدون استئذان : أتستمر الحياة حين نصحو ذات وجع لنجد خانة أولئك القلة خاوية ؟
لا أحد نحزن أو نفرح له !!
أتستمر الحياة بلا رفاق ؟
الرفاق هم من يصبغون الحياة بألوانها أم أن الحياة هي من توجدهم و تُعطيهم منازلهم ؟
كثيرة هي هذه الأسئلة .. وعسير الإجابة عنها !!

و نحن ندور في الأرض .. نصارع الحياة ..
كلنا نسير نحو نقطة النهاية = في سباق يحسمه الموت ..

***

- لا تتعجل الرحيل يا سامي فلعل في البقاء استزادة نعيم لتلك الدار و لمن نتركهم هنا نترك لهم عالماً أكثر صلاحاً ..

***

من جديد غارة تصيب مواقع المجاهدين ،ليرتقي منهم من يرتقي شهيداً .. و الرفيقان يرحلان مع من رحل ...

(١٦) للموت طعم آخر

فرق كبير بين حياتين ... بين إنسانين ..

فرق بين من دخل الحياة يوم قذفته أمه للحياة باكياً ،ثم شب حتى شاخ و أتاه الموت .. و بين آخر دخل الحياة يوم ولدته أمه ،لكنه ما زال يصنع كل يوم ما يجعل للحياة عندن معنى غير المعنى الذي عند الآخر ..

فرق بين من يهيم فيها كما تهيم البهائم في المراعي ،و بين من يبحث فيها عن غاية وجوده ..

فرق بين من يدرك ما هي الحياة فيمشي فيها واثق الخطى ،صارم العزم ،متنبهاً للخطر ..

و بين آخر لا يعرف ما الحياة .. يتخبط تائهاً ..

فرق بين إنسان يقارع ليبني و يعمر ... و آخر غاية ما يريده أن يمضي كما مضى أبوه من قبل دون أن يترك إضافة حقيقة في سفر الحياة ..

***

من يدرك حقيقة الحياة يُقيم ميزاناً لكل أحداثها و لحظاتها ،ميزاناً يضبطها ألّا تنحرف و تطيش ..

ما يستحق الفرح ، و ما يستحق الحزن ..

لو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلاً و لبكيتكم كثيراً ..لو تعلمون !!

***

الموت ذاته لحظة من لحظات الحياة ،جزءٌ منها لا ينفصل ..

ليس جزءاً فحسب بل هو اللحظة الأهم .. اللحظة الأكثر صدقاً ،اللحظة الحاسمة التي لا تقبل المزاح !!

الموت مخاض آخر لحياة أخرى = يشبه مخاض الولادة الأول ؛الفرق بينهما أن المخاض الأول يقذف للدنيا .. للحركة .. للعمل .. للكفاح ،أما المخاض الثاني فيقذف للآخرة .. للخلود .. للجزاء فالنعيم أو الجحيم ..

***

و الموت في فلسفة الصعاليك المنفيين من العالم الناظرين إلى الشمس بأبصار حادة ،المتسامين إلى السماء بأرواح طامحة ،السائرين نحو المجد بخطى واثقة ،الواقفين في وجه العالم بإيمان لا يتزعزع ،القابضين على الجمر ؛ في فلسفتهم الموت هو بوابة العبور نحو الفردوس المحجوب ..

هو الباب الذي سيغلق دون النصب .. هو الباب الذي من عبره نحو النجاة لم يذكر شقاء مر عليه قط من قبل مهما كان الشقاء حاضراً بقوة في حياته ..

علام الخوف من الموت إذاً ؟

الكل ينتظر الساعة التي يأتيه .. مهما اختلفت طريقة الانتظار ..

لاهٍ يعبث دون توقير للمنتظر ،لابد أنه سيتأخر ؛لن يأتي قبل عشرين عاماً أو ربما ستين أم أقل سبعين فلِم العجلة ؟

حتى إذا وقف برأسه لم ينفع حينها توقير أو إصلاح ما مضى ..

***

عويل النساء .. دموع الأحبة .. سرادق العزاء .. الملابس السوداء ..

أهذا هو الموت ؟ أم أن له ثمة معانى لا ندركها في غمرة توهاننا في دوامة الحياة العنيفة ؟

(إن بعض النقص روح الاكتمال)

لابد أن ننقص ما دمنا نحث الخطى نحو الكمال !!

لابد أن نتخفف من بعض المتاع ،كذلك الحياة لابد أن تتخفف من بعض الأحمال أيضاً ..

المؤلم أننا نتخفف مما لا يلزمنا .. لكنما الحياة في سيرها لا تقيم ميزاننا هذا = فكثيراً ما ينقص من كنا نتوقع منه المزيد .. فقط لو أن الموت لم يحتضنه !!

هكذا نتصور الموت .. نهاية حزينة لفصول لم تكتمل ..

يرحل الإنسان و لما يفرغ من إنجاز قائمة أحلامه ،يرحل و هو يمسك بالقلم ليسطر أحلاماً أخرى ليضمن أن الحياة لم تنته .. أما الموت فلا يحدد موعداً للزيارة الوحيدة !





لابد من النقص حتى يأتي من يكمل .. فلن تستقيم الحياة بساعد واحد ،لابد أن تختلط الألوان و تتشابك الأيدي لتكتمل اللوحة ..
لا سبيل للكمال ما لم تسقط اللبات الضعيفة .. حقاً : إن بعض النقص روح الاكتمال !!
يموت بعض الناس لتحيا الجماعة بخير ،فيكون هذا النقص حقيقة الكمال –و إن قل العدد!- ..
الرفعة و الكرامة و الحرية = هي حقيقة كمال الاجتماع الإنساني ،و جوهر وجود الجماعة ،فليس كثيراً أن يذهب بعض الجماعة من أجله .. ليس كثيراً أن تنقص ففي هذا النقص يكون الكمال ..
بإرادته يختار المرء أن يبتر ساقه التي يمشي بها أو يمينه التي يخط بها و يترجم عن ذاته .. لماذا ؟
ليحفظ كمال وجوده ..
تقطعت الأسباب .. الحرص على عدم النقص يعني أن لا يوجد ما يجب ألا ينقص
لا سبيل إلى الكمال إلا النقص !

***

للموت طعم آخر لا يتذوقه من لم يتعرف عليه ..
هكذا دائماً من يجهل الشيء لا يحسن توصيفه و إنزاله منزله ..

***

و ما قدروا الله حق قدره .. هذا هو السر .. هذه هي القضية ..

***

كذلك الموت و الحياة من لم يعرفهما ،لم يقدرهما قدرهما ،لن يعرف أن للموت طعماً آخر ..

***

وسط متاعه كانت مسطرة هذه الكلمات .. كانت أشبه بنعي كتبه لنفسه ، يتحدث عن الموت و كأنه صديق حميم ..
متحرراً من ثقل الطين الذي يشد للأسفل ،يحلق بروحه .. يبحث لها عن نعيم لا تكدره أشواك الحياة ..



(١٧) حب فوق سقف العالم

تأتي الأخبار إلى الديار بموت الرفيقين ..
هاهي أذن ياسمين تدوي فيها الفاجعة بفقد الأخ و الزوج ..
و يتوافد الناس زرافات و وحداناً يقدمون العزاء ..
من نظراتهم يتساقط الاستغراب و التحسر بعد أن امتلأت بهما الأعين ،
يتحسرون على من ماتا هناك .. من عاشا في غير هذا العالم ..

***

ككل الأشياء في العالم المنكوب يقدمون العزاء نفاقاً .. و إذا خلواْ :
لقد كانا أمواتاً في عداد الأحياء ..
فأي حياة هذه التي يجدونها في ثلوج الشيشان وسط الدمار و الدماء؟

***

"ياسمين" ثابتة تعلم أن هذه هي النهاية التي أرادها زوجها منذ قرر ألا يعيش كسائر الهائمين !

***

على المرآة ترى صبغة الحزن قد كست بشرتها ،و الدموع قد اتخذت لها وادياً في وجهها الحسن لتزيده حسناً على حُسن بلمعانها مع أشعة الضوء ..
شريط الذاكرة يمضي بطيئاً بطءً ثقيلاً ،يضغط على أعصابها .. تتألم و هي تذكر ابتسامته و أحاديثه ..
تنهار فتبدو عارية من صلابتها التي جعلتها كالمجنونة في أعين جموع المعزيات!!
أهذا مصير الحب ؟
نفقد من نحب،لكنهم يتركون جرحاً غائراً برحيلهم تعجز كل الوجوه التي حولنا أن تسده !
جرح ينزف لأن كل ما حولنا .. بل كلُ ما فينا –ما في خاصة أجسادنا- قد لامسه الحب ..
لو أن الأجساد لا تحمل الروح ..
لو أن للروح قالباً يحتويها غير الجسد الفاني ..

لو أن الجسد يأخذ معه الروح .. لا يتركها شبحاً يسيطر على حياتنا ما دام الخلود محالاً في هذا الأرض ،ما دام الموت يتربص بنا !
يظل الحب الأصدق و الأكثر إيلاماً بين كل المشاعر ..
يظل النعيم الذي نتقلب فيه ..
ينقلب فيصبح الألم الذي لا تزيله كل العقاقير ..
و يظل كذلك الفخ الذي نفرخ عندما نسقط فيه !!

***

الحور العين !!
أنسيت حين التقيت بهن هذه الشقية التي تركتها لتتعذب بهنا ،
و تتناوشها ألسن السوء بالسخرية ؟
كنتُ دوماً أغار حين تذكُر الحور العين !!
يرحل الرجال للموت ،ليحل محلهم الحزن و الشوق ..
أهي صفقة أبرمتها مع الألم يا أبا جهاد أن يرحل عنك و ترحل للجنة و يحط هو كل أثقاله في قلبي الذي كاد ينفطر ؟
هنيئاً لك ما أقبلت إليه .. هنيئاً لك دار الخلود ..
لو أنني أستطيع اللحاق بك الآن ،لو أجد ما يوصلني إليك ..
كنا دوماً نسعى للسمو .. حبنا أردناه أن يكون سماوياً ؛ و كان كذلك ..
لكن الحياة كانت أقصر منه ، كانت أضيق من أن تحتوي هذا الحب ..
العالم كان صغيراً جداً أمام حبنا ..

***

كنتُ .. و كنتَ : فكان الحبُ .. و كان العالم !!
كبرُ الحبُ و ضاق العالم .. و الحب يكبر كل يوم ..
ضاقت به الحياة ،صرخت : حبكما فوق ما أطيق ،فارحلا به ..
حتى إذا فاض الحبُ قررتَ أن تهجر الحياة و وجدتَ ضالتك ..
و بقيتُ هنا !!

أنت هناك في الجنة و أنا هنا في الأرض ، و حبُنا ملء ما بينهما !!

هو : حبٌ فوق سقف العالم !!!

